هيفاء البشير.. امرأة من ياسمين

هيفاء النجّار [1]

كيف يُمكن أن تجمع شتات المفردات لتعبِّر عن قامةٍ إنسانيةٍ عظيمةٍ بحجم هيفاء البشير؟! فالحديث عن أم مازن- كما تُحبُّ أن يدعوها الآخرون- يأخذك إلى تاريخٍ ثَرٍّ ليس ذاتيًّا فحسب، بل هو جمعيٌّ أيضًا.. هو حديثٌ عن نموذجٍ نسائيٍّ إنسانيٍّ مُلهم، عن معلمة متعلمة دومًا، عن أمٍّ أعطت أبناءها من دفقات روحها ونور عينيها ليغدوا متميزين.. عن زوجة رافقت زوجها في مسيرته داعمةً وحاضنةً ومساندة.. عن سيدة العمل الاجتماعي التي أسست جمعيات خيرية ما زالت ترى النور حتى يومنا هذا.. عن ناشطة اجتماعية سياسية تبوأت مناصب كانت حكرًا على الرجل فقط.. عن حزبيَّةٍ أيضًا انتمت لأحد الأحزاب لإيمانها بالعمل السياسي للمرأة العربية ودورها الكبير في ذلك.. عن كاتبة أصدرت مجموعتين قصصيتين للأطفال واستحقت جائزة عليهما، وكانت تدعو باستمرار إلى ضرورة تقديم أدبٍ راقٍ جميلٍ للطفل كي يرتقي بذائقته الأدبية والجمالية، ويحمله في وجدانه سنين طويلة، ويساعده على تفتُّح نُضجه الفكريِّ بالواقع المحيط به بأسلوبٍ يتواءم وقدراته العقلية.. عن مثقفةٍ بذلت كل ما في وسعها من أجل إغناء المشهد الثقافي الأردني ولا سيما للطفل.

إنها نموذجٌ للمرأة التي آمنت بأنَّ التعليم -ولا سيما للمرأة- أداةٌ فاعلةٌ للخلاص من كثيرٍ من أمراضنا الاجتماعية، والوقوف ثانيةً بعد سلسلة من كبواتنا على الصعيد السياسيِّ، فعلَّمت حينما كانت المرأة المتزوجة محرومةً من تلك البهجة، وليس هذا فقط، بل ظلَّت

(1) وزيرة الثقافة الأردنية/ عضو في مجلس الأعيان/ تربوية وناشطة نسائيّة.

تحلم بأن تواصل تعلُّمها حتى حققت ذلك الهدف، فنالت شهادتها الجامعية، وهي في سنٍّ يظن الكثيرون أنه خريف العمر، لكنها كانت حالمةً تُحب الحياة وتعيشها كأنها تعيش أبدًا.

لقد أدركت أم مازن بحسِّها العالي وبصيرتها أنَّ الثقافة والإبداع بشتى تجلياته هما الحصن المنيع الذي يحمي ثقافتنا وهويتنا ويكرّس وجودنا على خارطة العالم، فلا تبتلعنا الثقافات الأخرى فنغدو منفعلين فقط لا فاعلين، ولهذا فقد عملت بجهدٍ كبيرٍ لتأسيس منتدى الرواد الكبار ليكون مساحةً للمبدعين لكي يحلِّقوا في سماء الإبداع، ومجالًا للحوار والجدال، وفُسحةً للفرح والأمل.

كما كان لكبار السنِّ نصيبٌ من جهودها فأسست جمعية الأَسرَّة البيضاء، لأنها تؤمن بأنَّ كبار السن يستحقّون منا كلَّ رعاية واهتمام، فهم بركتنا الذين أعطوا بلا حدود، والذين يكتنزون حكايةَ شعبٍ واجه التحديات وشح الإمكانيات من أجل بناء وطنٍ يُشار له بالبنان.

هي التي استبصرت بأنَّ للمرأة دورًا فاعلًا في عملية التنمية الاجتماعية والسياسية والثقافية، فانخرطت في لجان المرأة المختلفة؛ تعمل هنا وترأس هناك.. تقود تارةً وتلهم تارات.. لا تكلُّ ولا تملُّ من العمل العام الذي يُسهم في نهضة الأردن ونمائه، ولا تتوانى عن دعم المرأة وتشجيعها على العمل والعلم والثقافة والمواصلة الدائمة نحو تحقيق الذات، لتصبح النساء قادراتٍ على اختراق حجب الكون فيعشن حياةً أجود وأجمل، ويعشن الحياة بغناها واتساعها، ويصنعن التغيُّر الذي يولّد مستقبلًا مشرقًا لنا جميعًا.

هيفاء البشير حملت في وجدانها ياسمينة من حارات نابلس العتيقة لتزرعها في السلط فيفوح أريجها في أزقة السلط كلها. عاشت في مجتمعٍ جديدٍ احتضنها، وهي بدورها اندمجت معه وفي حياته واحتضنته وخدمته بكل طاقته، لكنَّها لم تنسَ وطنها الأُمَّ، فكانت دائمة النظر إليه من جبال السلط فيهفو قلبها إليه، وتتابع أخباره فيتمزق قلبها وهي ترى ما الذي يجري في مدينتها وتسمع عن مأساة شعبها، لكنها لم تقف مكتوفة الأيدي بل دعمت نضال أبنائه.

هي التي تأسرك بدفء مَلْقاها، وتواضعها الجم، وتستولي على جوارحك وحواسك وهي تحادثك، لأنها تبث الأمل في النفوس، وتزوِّد بطاقةٍ إيجابية، كيف لا وأنت أمام قصة كفاح ونضال وإنجازات ونجاحات في شتى المجالات، وحكاية عمل صادق وجهد دؤوب لم تتغيَّا منه سوى خدمة الأردن وبناته وأبنائه.

حينما يذكر اسم هيفاء البشير تتراءى أمامي صورة امرأة جميلة مهيبة معطاءة كريمة عاشقة للأرض ومُحبَّة للإنسان، وستظل نموذجًا ناصعًا للمرأة الأردنية والعربية. أطال الله في عمرها ومتّعها بالصحة والعافية.